قصة السبعينات في سورية

بقلم رياض عصمت

اذا كانت « السمة المشتركة بين جميع الفنانين والكتاب المرموقين في العالم الرأسمالي هي عجزهم عن الملائمة بين انفسهم وبين الواقع الاجتماعي المحيط بهم »، على حد قول آرنست فيشر ، فان السمة المشتركة بين الكتاب الشباب العرب هي ايضا : الاغتراب . هذه الظاهرة بشقيها الاقتصادي الطبقي والنفساني الفلسفي . ناتجة عن الحيرة المزمنة في اتباع نهج سياسي محدد على صعيد الوطن العربي أو حتى في قطر من أقطاره . وعن ضياع الشعور بالحرية والشبع والامان .

وازمة الاغتراب تقود الكتاب الشباب عادة اما الى بكائية رثائية مستسلمة ذات طابع فردانى ، واما الى مواقف الرفض والاحتجاج والثورة . الفاصل بين النوعين دقيق ، وكثيرا ما يختلطان حتى عند الكاتب الواحد . ان للاغتراب هنا بعدا نفسيا اجتماعيا ، يبقى حتى لو الغينا الجانب الميتافيزيقي منه ، أو غيبنا اسبابه حسب التحليل الماركسي (اي علاقة المنتج بأداة الانتاج وبالساعة) . انه بشكل او بآخر عدم تكيف حاد مع المجتمع ، وبحث عن البراءة والعدالة المفتقدين .

سمات المضمون

اذا كانت ازمة الاغتراب هي المحور الاساسي لادب الشباب عموما ، فان هناك سمات مشتركة محددة تتعلق بالمضمون او المضامين المشتركة في قصص الكتاب الشباب في سورية ، يمكننا ان نستخلصها من خلال دراستنا للاتجاهات والمدارس المختلفة . ونحن نستقي ذلك من قراءة متأنية لمعظم ما في خارطة القصة القصيرة في سورية ، مركزين على الاضافات التي يتميز بها كتاب جيل السبعينات عمن سبقهم .

الموضوعات الكبرى والوضع الدنيوي

كتاب القصة الشباب في سورية يقفون في قصصهم على مفترق الطرق في الصراع بين الحب والقمع ، بين البراءة والشر . لذلك نجد للموضوعات الفلسفية الكبرى ملامح دنيوية محددة لديهم . وان اتخذت صياغتها اساليب شعرية معقدة . الموت يتجسد بالحرب ، الحزن بالاحباط العاطفي ، الخوف بالقمع السياسي ، القلق بالانفصال عن الآخرين وعدم تفهمهم ، والزمن بسقوط الاستار عن وهم او مثال زائف .

الجرأة في الطرح

الشباب ، في بداياتهم بوجه خاص ، اكثر جرأة على طرح المواضيع المحرمة في عرف المجتمع التقليدي . ان لها اغراء شديدا يجذبهم ، والنشر مشكلة قائمة امامهم على اية حال . لذلك فان النابر الثلاثي فيما يتعلق بالدين والجنس والسياسة ينهار امام حرص الشباب على خرق كل المحظورات ، والتعبير بجرأة عما يجيش في نفوسهم من مشاعر ، وعما يضطرم في مجتمعهم من مشاكل وهموم .

الحرص على الاسقاط

ان كتاب القصة الشباب في حرصهم على تصوير المجتمع والعصر والجيل بكل ما يملكون من ادوات وطموح ، ينحون نحو استخدام التاريخ او الاسطورة ، ملفين ما يوجد في كل منهما من مجال درامي خصب ، مكتفين بما يمنحانه من فرصة للترميز والتمويه مع الاسقاط . اما الدافع الآخر الاقل اهمية وبروزا ، فهو اللجوء الى التعميم والتجريد من اجل اكساب مواقف قصصهم وشخصيات ابطالهم بعدا فلسفيا خالدا . ان الوضع الظريف لاحياء شخصية تاريخية في العصر الحاضر

والملابسات الاتهامية التي تنجم عنه ، حيلة ورثها الشباب عن زكريا تامر . نادرا ، ونادرا فقط . ما استطاع كاتب شاب أن يتمثل التاريخ والاسطورة باصالة وعمق .

هذا ما نجده فقط عند محمود عبدالواحد ، وربما في قصص متفرقة قليلة لآخرين .

النزعة الفردية الرومانسية

رغم ان تجربة الجيل الذي سبق قصة السبعينات ارسى اساسا متينا للواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية والتعبيرية ، وكلها مدارس تعتني بالاجتماعي ، وبما يمكن تعميمه من التجربة الذاتية الانسانية ، رغم ذلك فان كثيرا من قصص الشباب تنطلق من معاناة فردية . وكثيرا ما تلبس قسرا لبوس العام والطبقي والثوري . ان الاتجاه المادي المسيطر على المجتمع بالمفهوم الكومباردوري يشعر الشباب بان كل شيء يتحول الى سلعة وتجارة ، لذلك تثور لديهم النزعة الرومانسية لمواجهة ذلك ، اضافة الى رغبتهم في التعبير دفعة واحدة عن كل ما يجيش في انفسهم وعقولهم . كما ان التغيرات السريعة الفجائية على صعيد الاحداث السياسية في المنطقة ، جعل الكتاب الشباب يلهثون وراء الومضة العابرة ذات الطابع الآني والعادي ، رغم انهم يفعلون ذلك باشكال بعيدة عن الواقعية الفوتوغرافية غالبا .

القلق ومنطق الكابوس

ان كثيرا من الملاحظات التحليلية السابقة تقودنا الى ان المواجهة مع الواقع ، او حتى الهرب منه ، يستدعي اللجوء الى الاحلام . لكن شعور الاغتراب والقلق والاحباط والقمع تسم القصص بجو الكابوس . انه غالبا ما يكون كابوسا مصنوعا ، يهدف بشكل منظم ومدروس (وهذا عيبه) الى الاسقاط .

الوعي الطبقي .. والمراهقة اليسارية

على اختلاف مضامين الكتاب الشباب واشكال تعبيرهم ، فانهم يدعون جميعا استهداف القصة الثورية الاشتراكية . انهم جميعا يدعون الوعي الطبقي . وصحة الحكم السياسي ، خصوصا وان معظمهم ينطلق من تعميمات . (لا استثني من هذا سوى قلائل جدا يكتبون بهدف انساني بحت) . ان بعضهم يملك دون شك ـ وبجدارة ـ الوعي الطبقي السليم ، لكن بعضهم يعاني من التشتت والمراهقة اليسارية ، كما ان بعضهم الآخر يملك وعيا نظريا لا يجيد توظيفه في قالب فني سليم . لكن الجزء الاكبر من قصص الشباب ينتمي على اية حال الى الموقف الاشتراكي ، لكنه في احيان عديدة يفتقر الى الحس القومي الاصيل ، وينحو نحو النموذج ، او نحو اصطناع شخصية من خلال الاسس النظرية وحدها . والادب الشاب يفقد في هذه النقطة كثيرا من اقناعه بوجه عام ، واقعيته اذا استهدف الواقعية على وجه الخصوص .

* * *

خارطة قصة السبعينات

لا نستطيع ان نعتبر قصة السبعينات في سورية صرحا متسادا لوحده ، او موقفا مناقضا لتجربة الاجيال السابقة في القصة . انها بالاحرى على تباين اتجاهاتها الفكرية ومدارسها الفنية امتداد للمحاور الثلاثة الرئيسية التي يتربع على مقدمة كل منها : عبد السلام العجيلي ، سعيد حورانية ، وزكريا تامر . لكن الحقيقة هي ان ابرز كتاب القصة الشباب يمزجون هذه المؤثرات ، ويضيفون اليها مصادر ثقافتهم وتجاربهم الحياتية ، ليخرجوا الينا بشخصيات متميزة خاصة . هؤلاء لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة . اما الاخرون . فالطريف انهم يستسهلون على ما يبدو فن القصة القصيرة ، ويخالون انفسهم قادرين على كتابتها بنجاح ، حتى اصبح عددهم باعثا على الدهشة ، خصوصا مع النزايد المرضي للصفحات الثقافية في الصحف والمجلات .

رغم هذا التورم في الكم ، فبالكاد نجد اليوم لدينا في سورية ملامح حركة قصصية شابة ، رغم ان هناك بعض البشائر التي تدعو للتفاؤل . اذن ، ففي العشر سنوات الماضية لم يكن هناك خط تصاعدي ، ولم يكد يلمع في القصة القصيرة خلالها سوى كاتبين او ثلاثة . حتى نضجت شجرة القصة في السبعينات واعطت ثمارا قليلة جيدة ، كثيرة هي الثمار العطنة التي سقطت . ان اقلاما شابة عديدة شعت في البداية ثم خبت ، وينابيع عديدة توقعنا منها الخير والعطاء ثم جفت ، لكن هذا لم يكن غالبا ذنب الشباب او نتيجة ضعف موهبتهم ، بل كثيرا ما كان ذنب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المجحفة . ان كثيرا من الاقلام غير الموهوبة على الاطلاق ما زالت تنشر وتلمع وتسلط عليها الاضواء ، في حين تظل بعض المواهب الحقيقية الاصيلة للاسف الشديد في الظل .

اذا استعرضنا خارطة القصة الشابة بتأن ، لوجدنا ان الازدهار الذي اصاب قصة السبعينات ، وسرعة تخطي القصاصين الموهوبين (وحتى غير الموهوبين) لحواجز النشر ، يعود الى الجيل الادبي الذي ولد بعد هزيمة ١٩٦٧ : (عادل محمود ـ نذير وكيل ـ سليم ابراهيم عبود ـ محسن يوسف ـ محمد كامل الخطيب ـ عبدالله ابو هيف) . بعض هذه الاسماء توقف فعليا عن الكتابة لاسباب شخصية او موضوعية ، وبعضها ما زال يكتب دون تطور ، وقليل منها مستمر . وما لبثت القائمة مع بدايات السبعينات ان اتسعت فأضيفت اليها اسماء : (ابراهيم الخليل ـ خليل جاسم الحميدي ـ توفيق الاسدي ـ وليد نجم ـ عبدالاله الرحيل ـ احمد داوود ـ

وديع اسمندر ـ سحبان سواح ـ هدى الفيل ـ نبيل جديد ـ نيروز مالك ـ سميرة بريك ـ محمود عبدالواحد ـ حسن م. يوسف ـ رياض خليل ـ عادل حديدي ـ جميل حتمل ـ وائل السواح ـ عميد درويش ـ وليد معماري . .) ـ وارجو الا أكون قد اغفلت احدا ممن حققوا استمرارية ومستوى معقولين . واعتقد ان بعضا منهم يتقدم بسرعة وجدارة . واحب ان اشير الى تميز وليد معماري وليلي صايا سالم وجميل حتمل في كتابة قصص للاطفال ، هي نقطة ينفردون بها ، وربما كانت لبعضهم مجال تخصص مهم وواعد . بينما أحب ان اشير الى تميز (محمود عبدالواحد ، هدى الفيل ، ابراهيم الخليل ، حسن م . يوسف ، وسميرة بريك) ، فكل منهم في مدرسته وأتجاهه يمثل اضافة وتجديدا .

ان سهولة فن القصة القصيرة في النظرة الاولى تتمخض عن صعوبة بالغة ، ما تلبث ان تبتلع التجارب الغضة . انه فن العصر ، الفن الذي يستفيد بوفرة السينما والمسرح والشعر والموسيقا والتصوير . لذلك ، فما اكثر الذين يفدون اليه من الفنون والآداب الاخرى ، وما أكثر الذين يبدأون به ، وما اكثر الذين يفشلون وينسحبون . ان القصة القصيرة والمسرح اليوم هما « السهل ـ الممتنع » ، هما « الحدسي ـ الحرفي » . وهذا ما كان على كتاب القصة الشباب ان يكتشفوه قبل ان تلمع بعض الوجوه من ادب السبعينات .

* * *

سمات الشكل

رغم ان بعض القصاصين الشباب في سورية دأبوا على ان يحتذوا حذو بعض السابقين ، كتامر ، والعجيلي ، وحيدر ، الا ان مجمل الحركة القصصية الشابة اخذت تفهم الواقع وتصوره بشكل بعيد عن الفوتوغرافية التي كانت سائدة في جيل الرواد بوجه عام . ان واقعية الشباب هي تارة موضوعية تسجيلية ، وتارة واقعية درامية ، لكنها دائما في الاعماق غير محايدة . هذه الميزة لها حد آخر ، اذ ان بعض الكتاب الشباب في سعيهم لتأسيس اتجاه واقعي اشتراكي في نفس الوقت الذي يسعون فيه الى كتابة قصة حديثة الطراز ، وقعوا في افتعال الدعائية ومسخ الواقع على قياس النظريات . فبينما تتأنق واقعية حسن م . يوسف ، وتنساب واقعية توفيق الاسدي التسجيلية باقناع امامنا ، نجد كتابا اخرين يفتقرون لموهبة التصوير البارع ورسم الشخصيات الحية . ان هناك مسحة من الشاعرية على اية حال في معالجة الواقع بشتى صوره ، الجميل منها والقبيح ، تكسو قصص الشباب في سورية .

ان كثيرا من قصص الشباب ، خصوصا البدايات منها ، ليست قصصا على الاطلاق ، وانما هي خليط من الاجناس الادبية والفنون الاخرى . ميزة الاستفادة من تلك الاجناس والفنون عند الموهوبين ، تصبح عند انصاف الموهوبين عيبا . انها تقترب من الفن الجديد اكثر من اقترابها من القصة القصيرة . ابرز تلك التأثيرات تأتي من السينما ، فالقصة السيناريو اصبحت موضة في القصة ، كما اصبحت « القصة اللوحة » و « القصة الكونشرتو » من قبل موضة الستينات على يد نواف ابو الهيجاء ووليد اخلاصي . ان بحث الشباب عن صوتهم الخاص الجديد يجب أن ينبع من حاجة وليس من ترف ، لذلك فالتجريب من اجل التجريب (ان لم يكن مدعوما برؤية عميقة للواقع ، وثقافة متنامية حول وسائل التعبير) يصل بالكاتب الى طريق مسدودة . ان اقتباس وسائل تعبيرية من فنون اخرى بقصد زيادة التواصل والتأثير ، يجب الا يقود الى اشكال هجينة لا توصل للقارىء اي شيء ، ولا حتى احساسا جماليا محضا .

اضافة الى مسألة التأثيرات ، فان القصة القصيرة كثيرا ما تختلط باخاطرة ، لعدم قدرة الكاتب الشاب على التفريق النقدي بين التجديد في القصة وبين اللاقصة . هذا ما ازكت ناره سهولة النشر ، واصبح الى جانب النزعة الشعرية الخالصة واللاقصصية على الاطلاق معظم ما يشكل الحركة القصصية في صحفنا ودورياتنا ، انها كتابة نثرية ـ (جميلة احيانا) لكنها خالية من الحدث والشخصيات ، ومن الترابط والاقناع ، وعدد من اسماء الذين ذكرناهم لا يكتبون غيرها .

هذا على كل حال ما لا يمكن تعميمه ، ففي قصص الاسدي استفادة ايجابية من السينما ، وفي قصص عادل محمود نفس شعري ، وفي قصص عبدالواحد تأثيرات ملحمية اسطورية ، وفي قصص حسن م . يوسف حوار مسرحي . وفي قصص سميرة بريك صور تشكيلية وشعرية . لكن جميع هذه المؤثرات عند هؤلاء تصب في مجرى القصة القصيرة ، فترفده وتغنيه .

تسيطر على كثير من محاولات الشباب القصصية نزعة الى التجريد ، والى الغاء بعد الواقع من القصة الغاء نهائيا . ومشكلة هذا النوع ان الرمز فيه له بعد أحادي الجانب ، بجعله استعارة ذات اسقاط محدد ، اكثر منه رمزا له ابعاد فنية متدرجة تتصاعد به من الحدث الواقعي الى آفاق الدلالات الاخرى . ان هذه الحلول الشكلانية هي هروب من الرقابة من جهة ، وهروب من الضعف الفني من جهة ثانية .

جزء كبير من قصص الشباب يهتم برصد الجانب الخارجي من الحياة ، منيحا بانظاره عند الجانب الداخلي . ان القصة بالتالي تفتقر الى اللمسة الانسانية ، وتكرس كل جهدها لتحقيق نظرة بانورامية (تسجيلية او ملحمية) بدلا من الغوص في اعماق الشخصية الانسانية ، والتعبير عنها . ان القصة تفقد عنصر توازنها وتألقها في رصد الذات والموضوع ، وفي تصوير كل منهما على ضوء الآخر .

يمكننا ان نعيد اسباب هذه الظاهرة الى ثلاث نقاط: الاولى هي نزعة الكاتب الشاب لقول كل شيء ، دفعة واحدة ، والثانية هو طغيان المادة في عصرنا على الروح، والثالثة هي سرعة التغيرات السياسية كل هذا اضافة الى عنصر السهولة في رصد الموضوع ، وذلك الخوف من ان تتحول الذاتية الى فردانية ، جعل القصة القصيرة اشبابة تغفل تصوير شخصيات انسانية تعيش حدثا دراميا ، وتغفل تصوير علاقات واقعية ونفسية تتيح لنا بالتالي كشف البنية الاجتماعية والاقتصادية للبيئة ككل .

هناك نزعة شعرية في اسلوب معظم القصص القصيرة التي يكتبها الشباب . هذه النزعة الشعرية هي السمة التي تميز جميع الاعمال الادبية الهامة ، وتعطيها عمقا اضافيا وابعادا جمالية ، لكن هذه النزعة عند بعض الشباب تصبح شكلانية تزويقية مفتعلة . ان كثيرين منهم ـ كما يرى شوقي بغدادي محقا ـ يكتبون القصة بدافع من ازمة مواجهة الشاب التريفي البريء لظروف مدينة استهلاكية ساحقة . ان الفارق بين عنصر الذاتية (الضروري) في الكتابة ، وبين عنصر الفردانية (المرضي) فارق كبير . الشباب عموما يخلطون بين العنصرين ، ويبدو لي ان بعض النقاد ايضا يفعلون ذلك . ان كل ما لا يمكن تعميمه او الافادة منه كنموذج او كرمز ـ حتى ولو كان واقعيا ـ هو فرداني . اما اللمسة الشاعرية واضفاء الاحساس الذاتي على التجربة الموضوعية فانهما يغنيان العمل الفني ، على عكس ما يرى الناقد يوسف اليوسف الذي جره خطأ استخدام بعض الشباب لشاعرية القص الى تعميم مغلوط . ان القصة القصيرة عند جميع الاجيال تقترب منه الفنون الحسية كالشعر والموسيقى والرسم . ان جزءا لا بأس به من القصة يعكس « الذات المتضخمة » . هذا ليس عيبا ان استطاعت هذه الذات ان تكون غنية ، او استطاعت ان تكون شاهدا للعصر والمجتمع . ان الانطلاق من الذات هو اساس الشاعرية الحقة في القصة . هذا ما يمنح العمل الادبي حرارته ، ويجعل منه ـ على حد قول مايكوفسكي عن المسرح ـ « ليس مرآة عاكسة ، وانما عدسة مكبرة » .

***

ان الاغتراب ، ورفض الواقع الفاسد (اجتماعيا او طبقيا ، والذاتية في التعبير عن الموضوع ، والشاعرية في الاسلوب ، كلها سمات مضمونية وشكلية تغلب على قصص الشباب . كل هذه السمات ، اضافة الى نزعة الكتاب الى التجديد وجرأتهم في التصدي لمواضيع محظورة ، يمكن ان تتحول من ميزات رائعة الى سيئات مدمرة . هنا النقطة التي يجب ان يحذر الكتاب الشباب من الوقوع فيها ، وكلنا يستطيع ان يرى كيف نجت قصص الموهوبين من الهشاشة، من المباشرة ، من الاستعارة الفجة ، من الشعرية المفتعلة في الاسلوب ، من المراهقة اليسارية ، ومن الفردانية في الطرح الطبقي او القمع العشقي . ان الموقف الطبقي او الدفاع عن الحرية لا بد ان يكون متضمنا في قصة ذات حدث مترابط مقنع يوحد ما بين الذات والموضوع ، وربما يستفيد من التاريخ والاسطورة والشعر . لكننا للاسف نواجه بنماذج عديدة تتحرى البساطة والواقعية وتصور شخصيات كادحة ، لكنها تقع في افتعال رسم الشخصية وتحريكها ضمن مواقف الحياة ، كما تقع في مشكلة اصعب وادق هي ان القصة كثيرا ما تخرج مجرد خبر لا قصة ، الامر الذي يحدده الناقد ي.م. فورستر بدقة . هذا شأن بعض قصص محمد كامل الخطيب، توفيق الاسدي ، ورياض خليل . اما التجريب بلا هدف واضح، ومحاولة التوصل الى صيغ موجزة جدا للقصة ، فانه ما نجده في بعض قصص نبيل جديد ، عبدالله ابو هيف ، وجميل حتمل . بينما نجد الاسقاط القسري والتضمين السياسي لدى وديع اسمندر ومحسن يوسف . اما افتعال الشاعرية والموقف الطبقي فنجدهما لدى عادل حديدي وسحبان السواح باسراف . بينما نجد الواقعية في صورتها التقليدية عند وليد نجم وعبدالاله الرحيل ووائل السواح مع فوارق البيئة والمميزات الفنية الخاصة لكل منهم .

الاسماء الاخرى في خارطة القصة السورية الشابة اعتبرها اما متميزة ، بحيث تخلصت من كثير من العيوب المذكورة ، واما غير واضحة المعالم بعد ، واما انها تستخدم بعض سمات القصة الشابة بنجاح واقتصاد يجعلها مبشرة واعدة .

ان مجمل الصورة التي تشكلها قصص الشباب على اية حال صورة ايجابية جديرة بالتوقف والدراسة . لقد استطاعت قصة السبعينات ـ بعد عطاءات الجيل المخضرم قليل العدد التي كانت كالنحت في الحجر ـ استطاعت ان تصبح مضيئة ، واعدة ، ومتجاوزة .

ان صوت القاص الشاب يتوحد احيانا كثيرة مع صوت بطله المحبط او المغترب ، بحيث يمثله ويعبر عنه، ويفصح عن انفعالاته وآماله . وكم هو جدير ان يتناول الدارسون من خلال علم النفس وعلم الاجتماع ومن خلال السياسة والاقتصاد ، الاسلوب الذي يجعل ادب الشباب في بلدنا ينصب في مجرى الاغتراب ، ولماذا يسيطر على المشكلات المطروحة في قصصهم الطابع الفرداني ، وتنبع همومهم من القمع العشقي والقهر السياسي . ان الجواب الفني المبدئي لدينا هو ان قصة السبعينات تقف بمعاناة حقيقية وبأصالة وصدق شاهدة على العصر العربي الحاضر .

دمشق